١٠
قصص الصحابة
عَمارُ بن ياسر (رضى الله عنه)
أبو الدرداء (رضى الله عنه)
عماد الشافعى
المركز العربي الحديث

عمار بن ياسر

أتى «ياسرُ بن عَامرٍ» من اليَمن مُهاجراً، واستقرَّ به المُقَامُ فى مكة يَعملُ ويكْدحُ طَلباً للرزقِ وسَعْياً على المعَاشِ، وتَزوجَ من جاريةٍ هَادئةِ الطِّباعِ راجحةُ العَقْلِ وتُدْعَى (سُمَّية بنتِ خياطٍ) وهى إحدى جَوارِى أبى حُذَيفة بن المُغَيرة.

وَرزقَ الله الزَّوجين ولَداً جَميلاً سَمَّاهُ ياسر(عَمَّار)، وشَبَّ الغُلامُ على الصِّدقِ والأمانةِ ومكَارمَ الأخلاقِ. وكان الإسلامُ وَقْتئذٍ يَنْتشرُ فى مكَةَ سِراً.

سَمِعَ ياسرُ بن عَامرٍ عن الدَّعوةِ الجديدةِ، والْتقى برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم، واستَمعَ منه إلى آياتٍ من القُرآنِ فَهتفَ قَلْبُه لَجلالِ الله، ودَعاهُ النبى إلى الإسلامِ فأسلَم.

وعادَ ياسرُ من سَاعته إلى زَوجه وولده فرحانَ، يَبثُّ إليهما بُشْرى إسلامِه. ويَقُصُّ عليهما ما سَمِعَهُ من النَّبى، ويَتْلو عليهما ما حَفظهُ من

آياتِ القُرآنِ. فانْشَرحَ صدرُ الزَّوجةِ للإسلامِ وآمنَ الفَتى ياسرُ بالدعوةِ الجديدةَ.

أسلمتْ الأُسرة الصغيرةُ ياسرُ وزوجتُه سُمَّيَة وابنها عَمَّارُ وكانتْ الأُسرةَ المؤمنةُ تُقيم الصَلواتِ فى دَارهم، ويُرتلون القرآنَ. وعَلمَ بنو مَخْزومٍ بإسلامِ آلِ ياسرٍ فاسْتشَاط غَيظَهم، وراحَ أبو جَهْلٍ غاضِباً يُهدِّدُ ويَتوعَّد:

عَجباً لأمرِ هؤَلاء الفُقراء الضُّفاء، يتركونَ دينَ الآباءِ والأجدادِ، ويَتبعون دين مُحمدِ بن عبد الله، هذا واللاَّتَ والعُزَّى لا يكونُ. . إما أن يَعُودوا إلى ملَّتنا أو نَجعْلهم للنَّاسِ مَثلاً.

أخْرج بنو مَخْزومٍ آلَ ياسرَ إلى بَطْحاء مكةَ ساعةَ القَيْظ وراحوا يَصبُّون عليهم ألوان العَذابِ. السِّياطُ اللاسعةُ تُمزِّق أجْسامهم، والحجارةُ القاسيةُ تدقُّ عِظامهم، والرِّمالُ الملتهبةُ تَشوى جُلودهم، والأسرةُ المؤُمنة صابرةٌ على العَذابِ والهوانِ فى ثباتٍ وصُمودٍ.

ويَمرُّ بهمُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيصرخُون: يا رسولَ

الله . . ألا ترى ما نحنُ فيه؟

فيحزن النبىُ ويقول : صبراً آلَ ياسرَ، فإن موعدكُم الجنةُ .

وتَنْزل هذه الكلمـاتُ بَرْداً وسـلامـاً على قُلوبِ الأُسـرة المُؤمنة، فـيَـزيدها العَـذابُ إصْـراراً وثَبَـاتاً، فُـيضـاعف المُشـركـونَ من وَطْأة التَـعـذيب، ويأمـرُهم المُشـركـونَ بأن يَسبُّوا مُـحمـداً ويُؤمنوا باللاتَ والعُزَّى . فيأبوا مُردَدينَ: لا إله إلا اللهُ، مُحمدُ رسول الله . فَيْجَّن جُنون المُشركينَ وتَنهالُ سِياطهم على أجْسامهمُ العَاريةُ .

ويأمرُ أبو جَهْلٍ «سُميةَ» أن تَسبَّ مُحمداً، فتُغلظ له القَولَ وتُسمعهُ ما يكرهُ، فَيطعنها بالحرَبةِ فيسيلُ دَمُها الطاهُر على الرِّمال السَّاخنة، وتَخرُ على الأرضِ مُسلمةً رُوحها لله لتكونَ أولَ شهيدةٍ فى الإسلامِ من أجلِ كلمةِ الحقِّ .

وذاتَ يومٍ كـان عَّمـارُ بن ياسـرٍ يُعذَبُ عَـذاباً شَـديداً، والمُشركـونَ يُغطون رأسهُ بالماءِ حتى بَلَغ به الإعياءُ مَداهُ وكادَ يختنقُ وهم يقولونَ لهُ: اذكرْ آلهتنا بخيرٍ .

فأخذَ عَمَّارُ يُردد قَولهم وهو فَاقِدُ الوعَى من أثرِ العَذابِ.

وعندما أفاقَ من الإغماء تذكَّر ما كانَ يُرددهُ فى غير وَعْيٍ، فأخذَ يبكى بُكاءاً شديداً.

وعَلمَ النَّاسُ بما قالهُ عمَّار وقالوا: لقَد كَفَر عَمَّارُ بن ياسر. ويمرُّ عليه النبىُ فيراهُ باكياً حَزيناً فيسألُه: ما يُبكيكَ يا عمَّارُ؟!

فيقول: أخذنى الكُفارُ وعَذبونى حتى قُلتُ كلاماً ما كان لى أن أقولَهُ.

فقال النبىُ: وكيفَ تجدُ قَلبكِ؟

قال عمَّارُ: أجدهُ مطمئناً بالإيمانِ يا رسولَ الله.

فيمسحُ النبى دُموعَ عَمارٍ، ويُربِّتُ على كَتفِه وهو يقولُ:

- لا تَبْتَئس ولا تَحزْن يا عمارُ، إن عَادُوا إلى تعذيبكَ فقُلْ لهم مثل ما قُلتَ. وتَلى النبى عليه الآية:

﴿إلا من أُكرهَ وقَلْبهُ مُطمئنٌ بالإيمانِ﴾

وهنا هَتفَ عَمَّارُ بفرحة: أحقاً يا رسولَ الله.. الحمدُ لله كثيراً.

واسترد عمَّارُ بن ياسرٍ سكينةَ نفسه وراحةَ ضَميره، وأصبح أكثر صُموداً أمام كُفار قريش.

***

ويُهاجرُ النبى صلى الله عيه وسلم إلى المدينة، ويُهاجرُ إليها المُسلمونَ، ويَشرعُ النبى فى بناء مَسجد لإقامة الصَّلاة، ويجتمعُ المسلمونَ على العملِ. الجميعُ يحملونَ الحجارةَ ويُشيِّدون البناءَ، ويرى النبى عمارَ بن ياسرٍ يعملُ بهمة وقُوة فيقتربُ منه ثُمَّ يقولُ على ملأٍ من الصَّحابة: «وَيْح ابن سُمية.. تقتلهُ الفئةُ الباغيةُ»

ويرفعُ عمار نَاظريه إلى السَّماء متمتماً: اللهمَّ ارزقنى الشهادةَ فى سبيلكَ.

ويشهد عمار بن ياسرٍ الغزواتَ كلها مع النَّبى. وكان عمارُدائمَ التأملِ كثَير الصَّمتِ ذاكراً لله. وكان النبىُ يحبهُ ويقولُ لأصحابه:

- «إن عمَّاراً مُلىءَ إيماناً إلى مُشَاشه»

وذاتَ يومٍ كانَ عمارُ بن ياسرٍ يعملُ بجوارِ جدارٍ متهاوٍ وفجأةً سَقطَ الجدارُ مُتهشماً فصاحَ المسلمونَ بفزعٍ: ماتَ عمَّارُ!

وأسرعَ بعضهم إلى النَّبى يَنْعى إليه عمار بن ياسر.

فقال النبىُ مُطَمئناً لأصحابهُ: اهدأوا.. ما ماتَ عمَّار، تَقتلُ عمَّارَ الفئةُ الباغيةُ.

فتعجَّبَ الصحابةُ وعادوا إلى بيتِ عمارٍ فوجدوهُ راقداً فى فِراشِه أصابتُهُ بعضُ الجُروح.

وتصعدُ رُوحُ النبى إلى الرَّفيقِ الأعلى، ويَلِى الخلافةَ أبو بكرٍ الصِّديق فيُقاتل عمَّارُ المرتدين عن الإسلامِ، ثُم يلى الخلافةَ عُمر بن الخطاب وينتشرُ الإسلامُ فى الشَّامِ، ويُرسله عُمر والياً على الكُوفة.

وبعد مَقْتلِ عُثمان بن عفانٍ، يُبايعُ المُسلمونَ علىٌّ بن أبى طالبٍ للخلافة، فيكونُ علىٌّ أميراً للمؤمنين. ورفضَ معاويةُ بن أبى سفيانٍ بيعةَ الإمامِ علىّ بن أبى طالبٍ، وكان وقتها بالشَّامِ، والتفَّ حوله كثيرُ

من المُسلمين رافضينَ بَيْعةَ الإمام علىّ طالبينَ الثَّأرَ لدمِ عُثمان بن عفانٍ.

واعتبر علُّى بن أبى طالبٍ ذلكَ الرفضَ تمرداً على دَولةِ الإسلام ينبغى قَمعهُ حتى لا تحدثُ فتنةً.. ولكنها حدثتْ.

خَرجَ علىّ بن أبى طالبٍ بجيشٍ كبيرٍ لمواجهةِ مُعاوية، وكان جيشُ على بن أبى طالب فيه عمَّارُ بن ياسرٍ وكثيرٌ من الصَّحابة.

والتقى الجيَشانِ فى موقعةِ صِفِّين.. المُسلمونَ يقاتلُ بعضهم بعضاً. إنها الفتنةُ الكُبرى.

كان عمارُ بن ياسرٍ شَيْخاً كبيراً فى التِّسعين من عُمره يحمل سَيفهُ ويمتطى فَرسهُ، ويشعرُ بقربِ نهايته.

رفعَ عمَّارُ رايةً وراحَ يخطبُ فى المُسلمين: أيها النَّاسُ.. قاتلتُ بهذه الرايةَ مع رسولِ الله، وها آنذا أُقاتلُ بها اليومَ. أقاتلُ هؤلاء الذين يَزْعُمون أنهم يثأرونَ لعثمان بن عفانٍ. إنهم يَزْعمون ذلك، وما

يُريدون إلا أن يكُونوا مُلوكاً جَبَّارينَ . . نَفسى تُحدثنى أننا على الحقِّ وأنهم على البَاطلِ .

وراحَ عمارُ بن ياسرٍ يَصُول فى الميدنِ ، وهو يتذكرُّ قولَ النبى : «تَقْتلُ عماراً الفئةُ الباغيةُ»

وكان يشعر بأن نبوءة النَّبى له ستتحققُ ذلكَ اليومِ ، فأخَذَ يُرددُ بفرحةٍ طاغيةٍ : «اليومَ ألقى الأحبةَ . . مُحمداً وصَحْبَهُ» .

وتدورَ موقعةُ صِفِّين ، ويُقاتلُ الشَيخُ بحماسٍ كأنه شَابُ فَتىً حتى يَلْقى الشهادةَ فى سبيلِ الله ، فيحملهُ أمير المؤمنين على بن أبى طالبٍ آسِفاً حَزِيناً ، ويُصلّى عليه فى جَمْعٍ من المُسلمينَ ، ويدفنهُ علىّ بن أبى طالبٍ فى ثيابهِ التى ضَمّختها الدماءُ .

«رضى الله عنه»

أبو الدَّرداء

كانَ لأبى لدَّرداءِ صَديقٌ حميمٌ هو «عبدُ الله بن رواحة»، وكان قَدْ أسلَمَ وآمن بدعوةِ مُحمدٍ وقاتلَ مع المُسلمينَ فى معركةِ بَدْرٍ.

كان عبدُ الله يدعو صَديقَهُ أبا الدرداء إلى الإسلامِ، وكان أبو الدرداء يرفضُ، فقد كان متعلقاً بالصَّنمِ بشدةٍ.

ذاتَ يومٍ ذَهبَ عبدُ الله بن رَواحةٍ إلى صَديقه (أبى الدرداء) ورَاحَ يحدثهُ: يا أخى إن الإسلامَ دينٌ يدعوُ إلى توحيدِ الله والمساواةِ والعدلِ بين النَّاسِ. فلم لا تَشْهدُ يا صديقى بأنه لا إله إلا اللهُ وأن محمداً عبدهُ ورسولهُ.

قالَ أبو الدرداء: لم يَطْمئنَ عَقْلى بعدُ إلى الدَّعوةِ الجديدةِ.

قال عبدُ الله: كيفَ؟! . . يا صَديقى إن الآلهةَ التى كُنَّا نعبدها ما هى إلا أصْنامٌ لا تَضرُّ ولا تنفعُ. . هى حجارةٌ صنعتها أيدينا، ووضَعتها أيْدينا، ثُمَّ نحن نركعُ لها ونسجدُ.

قالَ أبو الدرداء: دَعْنى يا صديقى وشَأنى.. وخَرَجَ عبدُ الله حَزيناً، ولكنَّه كانَ يَعْلَمُ أن صديقَهُ المخلصُ رجلٌ عاقلٌ يدير الأمرَ فى رأسهِ مرةً ومرات.

ذَهبَ عبدُ الله بن رواحة بَعد أيامٍ إلى بيتِ صديقه فخرجتْ زوجتهُ أم الدرداء فسألها عنه فقالتْ: خَرجَ صديقك.

فدخلَ عبدُ الله البيتَ قاصداً الحُجرة التى بها الصَّنمُ فحطمهُ وهو يُردد: لا إله إلا اللهُ.. ألا كُلُّ ما يُدْعَى مع اللهِ باطلٌ، ثُمَ خرجَ وهو يقولُ لزوجة صَديقه: أخْبريه بما صَنعتُ.

وعادَ أبو الدرداء آخرَ النَّهار إلى داره ليَجد زوجتهُ تبكى خَوْفاً فسألها: ما يُبْكيكِ يا أُمَّ الدَّرداء؟

قالتْ: إن أخَاكَ عبدُ الله بن رواحة دخلَ الدَّارَ وفعَلَ ما تَرى!

فغَضب أبو الدَّرداء وراحَ يَمشّى فى الدَّار جيْئةً وذهاباً وهو يَرْطِنُ بكلماتٍ غَاضبةٍ: ألم أقُلْ له دعنى وشَأنى!!.. لن أتركَ دين آبائى وأجدادى.

وبعد قَليلٍ هدأتْ نفسهُ وأخذَ ينظرُ إلى حُطام الصَّنم ويُفكر .

ثم قال فى نفسه : لو كان فى هذا الصَّنمِ خيرٌ لدفع عن نفسه الأذى . . يبدو أن صديقى على حقٍ ، وأن محمداً عبد الله ورسوله .

وانطلقَ أبو الدرداء حتى أتى رسولَ الله وأعلنَ إسلامُه .

***

عادَ أبو الدرداء من عِند النبى إنساناً آخرَ ، ويُحسُ بسكينةٍ وسَعادةٍ وراحةٍ ، ويُرددُ ما سمعه من كلامِ القرآن . كلماتٌ لا هى بالشِّعرِ ، ولا هى بالسِّحرِ ، لكنها تُريحُ القَلْبَ وتثيرُ الفكرَ . وأصبحَ أبو الدرداء من بَعدها يَجدُ مُتعةً وراحةً فى الاستماعِ إلى كلامِ النَّبى والجُلوسِ فى المسجد للتفكرِ والصَّلاة . وتَغَيرتْ أحوالُه ؛ فزَهَد فى المالِ وأقْبل على طلبِ العلم ، وكان يطيبُ له الجلوسُ للتأملِ والذّكر .

وقال عنه النبى لأصحابه : «هو حكيمُ أُمتى . .»

فى غزوة أُحدٍ كان أبو الدرداء يُقاتلُ فى سبيلِ الله مع جَيش

المسلمين، وشَهد الغزواتِ بعدها.

جاءهُ ذات يومٍ رجلٌ وهو يَصيحُ: يا أبا الدَّرداء.. يا أبا الدَّرداء.

التفتَ إليه أبو الدَّرداء وقالَ: ما الأمرُ؟

قال الرجلُ: احترقَ بَيْتكُ!

رد أبو الدرداء وهو هَادىءٌ واثقٌ: ما احترقَ!

ولم تَمْضِ لحظاتٌ حتى جَاءَ رَجلٌ آخرَ يقولُ: انبعثت النَّارُ فى الدِّيارِ حتى إذا اقتربتْ من بيتكَ طُفئتْ.

قالَ أبو الدرداء وهُو يُغمض عَينيه: الحمدُ لله.. إنى أعلم أن الله عزَّ وجَل لم يكنُ ليفعلَ ذلكَ.

سألهُ الرجلُ مَذْهوشاً: كيفَ.. كيفَ يا حكيمَ الأُمة؟!.

قال: كلماتٌ سمعتها من رَسول اللهِ، من قَالهُنَّ حَين يُصبحُ لم تُصبهُ مُصيبةٌ حتى يُمْسى.

قالوا: ما هى يرحمكَ الله.

قـال: «اللهم أنتَ ربى لا إله إلا أنتَ، عليكَ توكلتُ وأنت ربُ العرشِ العظيمِ، ما شاءَ الله كانَ، وما لم يَشأ لم يكن. ولا حَولَ ولا قُوةَ إلا بالله العليّ العظيمِ. أعلمُ أن الله على كل شيءٍ قديرٍ وأن الله قد أحاطَ بكلِ شيءٍ علماً. اللهم إنى أعوذُ بكَ من شَرِّ نفسى ومن شَرِّ كل دابةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتها إن ربى على صِراطٍ مستقيم».

***

وتمضى الأيامُ، وفى خلافةِ عُمر بن الخطاب يُرسل يزيدُ بن أبى سُفيان إلى أمير المؤمنين ليبعثَ إليه بعض حفظةِ القرآن ليعلمون النَّاسَ فى الشَّام، فيُرسلُ أمير المؤمنين أبا الدرداء إلى دِمشقَ ليُعلم أهَلها كتابَ الله وسُنَّةَ نبيهِ عليه الصلاةُ والسلامُ.

ويعيشُ أبو الدرداء هُناكَ عابداً لله زاهداً فى الدُّنيا.

وفى خلافةِ عُثمان بن عفانٍ ولى القضاءَ على دمشقَ. فكان أبو

الدَّرداء قاضياً عَادلاً، عَالِماً باستنباطِ الأحكامِ، واعظاً للنَّاسِ.

كان أبو الدرداء يَسيرُ فى إحدى طُرقِ دمشق ذاتَ يومٍ عندما رأى نَفَراً من النَّاسِ قد احتَشدوا على رَجلٍ يضربونه ويشتمونه، فاقتربَ منهم وسألهم، ما شَأنهُ؟

قالوا: هذا الرجل وقَع فى ذنبٍ كبيرٍ.

أشْفق أبو الدرداء على الرجل وقال لهم:

- أرأيتُم لو وَقعَ فى بئرٍ أفلم تكونوا تستخرجونهُ منه؟!

قالوا: نعم.

قال: يرحمكم اللهُ.. لا تَسبُّوا الرجلَ ولا تضربوهُ، وإنما عِظُوهُ وبَصرُّوهُ، واحمدوا اللهَ الذى عافاكم من الوقُوعِ فى ذَنْبه.

دُهش القومُ من كلماتِ القاضى وسألوهُ: أفلا تَبغضُه؟

قال أبو الدرداء: إنما أبْغضُ فِعْلهُ، فإذا تَركَهُ فهو أخى.

وهنا بكَى الرَّجلُ بكاءاً شديداً، وأعلَن توبتهُ واستغفارهُ لله.

وذاتَ يومٍ جاءَ يزيدُ بن مُعاويةٍ إلى أبى الدَّرداءِ ليخطبَ ابنتهُ المؤُمنة الحسناءُ. فاعتذرُ أبو الدَّرداء للرجلِ اعتذاراً مُهذَّباً.

فسألتهُ زوجتهُ: وَيْحَكَ.. أتردُّ يزيدَ بن مُعاويةِ وأنتَ تَعلمُ مكانتهُ فى النَّاسِ؟!

فقال أبو الدَّرداءِ: يا أمَّ الدَّرداءِ.. إنى فكرتُ فى مَصْلحةِ ابنتى (الدَّرداء) إذا عَاشَتْ فى بيتٍ يقومُ على خدمتهِ العبيدُ والخدمُ ويمتلئُ بالنَّعيمِ والتَّرفِ، وانشغالها بمتاعِ الحياةِ.. فأين دِينها يَومئذٍ؟!

وبعد أيامٍ خَطبها رَجلٌ مؤمنٌ من بُسطاءِ المُسلمينَ فقبلهُ أبو الدَّرداءِ زَوْجاً لها - بعد أن خَيَّرها ووافقتْ هى.

وكانتْ الفتاةُ ناضجةً عاقلةً طائعةً لله.

ويشتدُّ المرضُ بأبى الدَّرداءِ، فيزورهُ أصحابُهُ ويسألونهُ:

- ما تَشْتكى يا أبا الدرداء؟

فيقول: ذُنوبى..

فيسألهُ أصحابهُ: وما تَشْتهى؟

فيقولُ: عَفْوَ ربى.

وتصعدُ رُوحه الطَّيبةُ إلى بارِئها ولِسانهُ رَطْبٌ بذكرِ اللّه.

(رضى الله عنه)